مشكلة الحرية في رواية "الطاعون"

بقلم سيد صبحي

« ان لحظات الزمان اشبه ما تكون بقطرات الماء التي تتساقط من بين اصابعه .. دون ان يقوى على امتلاكها او القبض عليها بجمع يديه ... » *

في عرضنا لمشكلة الحرية في رواية « الطاعون » (1) عند الفيلسوف البير كامو .. يجدر بنا ان نتذكر « سيزيف » الذي عذبته الالهة وحكمت عليه بأن يدفع امامه حجرا الى اعلى الجبل ، وكان كلما بلغ القمة انحدر الحجر الى اسفل ، ويعود فيرفع الحجر الى القمة ويسقط الحجر .. هكذا الى غير نهاية . ان الالهة عذبت « سيزيف » لانه اخطأ ، والانسان الحر هو الذي يخطىء .. اما العبد فهو لا يخطىء لانه لا يختار ما يفعل ، وانما يفعل ما اختاره له سيده ..

والانسان الحر هو الذي يقاوم ، ويجاهد الالم والمرض .. هو الذي لا يعرف حدودا لحريته .. وهو الذي يصطدم دائما بالقيود التي وضعها غيره من الاحرار او غيره من الالهة .!

هذا هو « سيزيف » انه اسمى من العذاب ، واقوى من حكم الالهة .. فهو يعلم انه محكوم ، وهو يعلم ان هذا الحكم لا رجعة فيه ، وان هذا العذاب مدى حياته ، ولكنه مع ذلك يرفع الحجر ، ويلاحقه اذا نزل وينحني عليه ، ويحرص الا يسقط من يديه ، وهو يرفعه .. انه يؤدي هذا العذاب كما لو كان واجبا مقدسا انه يقاوم المستحيل، ويعلم انه يقاوم المستحيل ، ومع ذلك يستمر في مواجهة المستحيل دون ما استسلام ، وهكذا نجد أنفسنا أيضا امام « الطاعون » نعاني نفس المشكلة .. مشكلة الحرية .. مشكلة الخلاص .. وكم حارت الافهام في مشكلة الحرية ، ولكن على الرغم من هذه الحيرة سوف نجد « البير كامو » قد قدم لنا عملا أدبيا ان دل على شيء فانما يدل على ان الانسان هو الموجود الوحيد الذي يشعر بانه حر .. وهو الموجود الذي لا يكف عن تكذيب كل ما يعوق حريته !

* * *

في صبيحة اليوم السادس عشر من ابريل خرج الدكتور برنار ريو من مكتبه وأصطدم بفأر ميت على بسطة السلم، ومن غير ان يولي الامر أي اهتمام أزاح الفأر من طريقه وهبط ، ولكن ما ان وصل الى الشارع حتى تنبه الى ان هذا الفأر لا ينبغي ان يبقى في مكانه، فعاد على اعقابه ليلفت نظر البواب الى ذلك .. وكان لرد الفعل الذي احدثه ذلك على السيد « ميشيل » الهرم أثره في ان يجعل الدكتور « ريو » يشعر بما لهذا الاكتشاف من غرابة ، فلم يكن وجود هذا الفأر يبدو له اكثر من أمر غريب – في حين كان البواب يعتبره أمرا فاضحا ..

والواقع ان موقف هذا الاخير كان حازما ، اذ انه لم تكن توجد فئران بالمنزل ، وعبثا حاول الدكتور ان يؤكد له ان هناك فأرا على البسطة، وانه قد يكون ميتا .. لقد ظل البواب يؤمن ايمانا لا يتزعزع بانه لا توجد فئران بالمنزل ... واذا وجد فأر فلا بد ان يكون مجلوبا من الخارج..! وبالاختصار لا بد ان يكون في الامر مجال لدعابة سخيفة ..

ولكن ما هي قصة الفئران هذه ؟ قال « ريو » لا أدري .. انه امر غريب .. ولكنه سيمر بلا ريب. غير ان الحالة لم تزدد الا سوءا في الايام التالية .. فكان عدد هذه الحيوانات القارضة كل يوم في ازدياد ... وكذلك كان المحصول الذي يجمع منها كل صباح ...

وكانت الدهشة تعقد ألسنة مواطنينا حين يعثرون عليها في الاماكن الآهلة من المدينة، حتى ميدان السلاح ، والشوارع الكبرى ، والمتنزهات لم تسلم من تكدسها فيها ، وكأنما الارض التي أقيمت عليها منازلنا تبدو وقد أخرجت اثقالها ، وما كان ينخر في جوفها من سرطانات وقروح .. وهكذا أصابت الدهشة مدينتنا الصغيرة التي كان يسودها الهدوء.. وقد اضطرب أمرها في بضعة أيام كما لو كان هناك رجل في صحة جيدة ثم أخذ دمه الكثيف في الغليان على حين غرة ...

وهنا يلوح لنا سؤال : ماذا نفعل حتى لا نضيع وقتنا ؟

ويكون الجواب : ان نمارسه بكل ما فيه من طول .. فقد صار كل الناس في البلية سواء .. واغلب الظن ان الوقت قد أزف ، فقد كان الامر يزداد سوءا واستفحالا لدى مرور كل لحظة من النهار .. وكان «ريو» يشعر بأن مخاوفه تزداد ، وأعتقد انه « وباء » فالاوبئة من الامور الشائعة .. ولكن عندما ينزل الوباء على رؤوسنا يصعب علينا الاعتقاد بانه وباء ، وقد أصيب العالم بالطاعون مرات تقارب عدد المرات التي نكب فيها بالحرب ، ومع ذلك فكلا الشرين .. الحرب والطاعون يباغتان الناس على غير استعداد منهم لملاقاتهما .!

فعندما تندلع نيران الحرب يقول الناس: انها لن تطول .. لان استمرارها ينم عن أشد الغباء .. فالواقع أنه لا شيء أشد غباء من الحرب ، ولكن هذا لا يمنع من ان يطول أمدها .. اذ الغباء من شأنه المثابرة ، ويمكن ان نلمس ذلك بوضوح اذا ما صرفنا النظر قليلا عن حصر تفكيرنا في أنفسنا .. ولكن مواطنينا كانوا في هذا الصدد كغيرهم من الناس .. كان تفكيرهم محصورا في أنفسهم ، وبعبارة أخرى كانوا عريقين في الانسانية ، أي لا يعتقدون في الاوبئة .. فالوباء أكبر من الانسان ، ولذا يميل الناس الى الاعتقاد بانه ليس من امور الواقع، وبأن المسألة لا تتعدى حلما مزعجا لا يلبث ان ينتهي ... « ولكن الحلم لا ينتفي في كل الاحيان » ، ثم تتتابع الاحلام المزعجة بعضها في اثر بعض حتى ينقض الناس أنفسهم فيها لانهم لم يتخذوا للامر حيطة ... وكانوا يظنون أنفسهم أحرارا ، ولكن لا وجود للاحرار ما دام للاوبئة وجود ..!

علينا ان نعمل على محاربة « الطاعون » ولا ينبغي ابدا ان نؤجل للغد .. ولا بد من ان ننجح .. فالنجاح ليس كبيرا على من ينشد الحرية ، ويرفض الاستسلام للذعر .. اذن فلنتحد ونتكاتف ضد اولئك الذين « يفكرون فيك ليسيئوا اليك » وعلينا ان نجعل الطاعون شغلنا الشاغل جميعا حتى نقضي عليه ، فنحن الان لسنا سوى أولئك الذين وضعتهم العدالة او الاحقاد البشرية وراء القضبان ولم يكن هناك مهرب من هذا الفراغ غير المحتمل الا في اعادة سير القطارات في خيالنا ... وملء أوقاتنا برنين متتابع لاجراس أبوابنا .. تلك الاجراس التي كانت تصر على الصمت . ولكن اذا كان الناس يشعرون بالمنفى .. فان منفاهم كان في بلدهم في أغلب الاحيان .. فقد كانوا يصطدمون دون توقف بذلك

---

* تأملات وجودية – الدكتور زكريا ابراهيم – منشورات الاداب

(1) وقد رجعنا الى النسخة المترجمة بالعربية التي ترجمتها الدكتورة كوثر عبد السلام بحيري – وراجعها الدكتور محمد القصاص وصدرت عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

الجدار الذي يفصل بين المصير الموبوء الذي فرض عليهم ، وبين وطنهم الذي ضاع منهم .. فأغلب الظن انهم هم الذين كانوا يمرون هائمين على وجوههم في كل ساعات النهار في المدينة المقبرة يدعسون في صمت – ذكر الامسيات التي عرفوها وحدهم ، وينادون أصبحة بلادهم المنعشة .. لقد كانوا حينئذ يغذون نار ألمهم بتأويل علامات غير محسوسة، وارهاصات محيرة .. كمرور الطير في سماء المدينة أو ندى الغروب ، او تلك الاشعة الغريبة التي تتساقط الشمس احيانا في الشوارع المقفرة .

وفي كل مساء كانت هناك أذرع تتعلق بذراعي « ريو » وكلام كثير لا فائدة منه ، ووعود ودموع غزيرة تذرف ، وفي كل مساء كان يتسبب رنين جرس سيارة الاسعاف في أزمات لاطائل من ورائها . وفي نهاية تلك الاسابيع المزعجة ، وبعد كل هذه الاماسي التي كانت تفرغ فيها المدينة سكانها لكي يلفوا ، ويدوروا في الشوارع .. فهم «ريو» أنه ليس له أن يدافع عن نفسه في اتهامه بعدم الشفقة .. فالمرء يتعب من الشفقة عندما تصبح غير ذات معنى .!

وكأنما وقت التفكير قد حان ، والصالحون الاحرار لا يخشون ذلك .. أما الشريرون فلهم ان يرتعدوا فالعالم الان بمثابة خزانة هائلة للغلال ، ولسوف يضرب الطاعون القمح البشري حتى يفصل منه القش عن الحب ، وسيكون القش اكثر من الحب .. وعدد الذين يدعوهم اليه اكثر من عدد الناجين منه .. وقت التفكير قد حان .. ولا بد للخلاص فليس من الممكن ان تستمر هذه الحال .. فالله الذي أطل على الناس في هذه المدينة بوجه من الشفقة .. قد مل الانتظار وصدم في أمله الخالد ، وأشاح عنهم بوجهه ، وها نحن أولاء بعد ان حرمنا من النور الالهي نتخبط ولوقت طويل .. في دياجير الطاعون !!

والشيء الغريب...انه قد غصت كاتدرائية مدينتنا بالمؤمنين طوال هذا الاسبوع وانتشرت رائحة البخور وأعتلى الاب « بانلو » منبر الكاتدرائية ثم قال بصوت قوي :

« اخوتي انظروا الى ملك الطاعون هذا .. انه جميل جمال الشيطان، وله بريق كبريق الشر نفسه وقد وقف فوق أسطح منازلكم ، وامسك بيده اليمنى العصا الحمراء ، ورفعها حتى مستوى الرأس في حين ان يده اليسرى تشير الى أحد منازلكم ، وقد تكون أصبعه في هذه اللحظة تشير الى بابكم وعصاه تدق على خشب الباب .. وفي هذه اللحظة أيضا يدخل الطاعون بيتكم ، ويجلس في غرفتكم منتظرا أوبتكم .. انه هناك ينتظر في صبر وأناة ، وهو واثق من نفسه وثوق هذا العالم من نظامه وهذه اليد التي يمدها اليكم .. اعلموا جيدا أنه لا توجد في الارض ولا في العلوم البشرية التافهة قوة تستطيع ان تجعلكم بمنجاة منها – وهكذا سوف يضربكم الطاعون كما يضرب القمح على جرن الالم الملطخ بالدماء ثم يلقى بكم مع القش ».

ويتابع الاب بانلو بمزيد من الايضاح وصف تلك الصورة المؤثرة للوباء ، فصور قطعة الخشب الهائلة التي تلف وتدور فوق المدينة تخبط خبط عشواء .. ثم ترتفع ثانية ، وقد لطختها الدماء وتستمر تبعثر الدم والالم البشري من اجل « بذر ينتهي بحصاد الحقيقة » ، ثم يصيح الاب « بانلو » بصوت اشد قوة : « أيها الاخوة ان رحمة الله تتجلى في كل شيء .. في الخير والشر ، القسوة والشفقة .. الطاعون والخلاص .. فهذا الوباء نفسه الذي يدمي قلوبكم هو الذي سيسمو بكم..ويريكم الطريق .. »

لا بد اذن من التصميم.. فالتصميم لا بد وان ينتهي دائما بالانتصار على كل شيء .. ولكن يبدو ان قلوب الناس جميعا قد تحجرت.. فقد أخذ الجميع يسيرون ويعيشون بجانب الانين ، وكأنه قد أصبح لغة الناس الطبيعية .. وكأن الربيع قد كل بعدما بذل من ذات نفسه في صورة الاف الزهور المتألقة في كل مكان حول المدينة ! الربيع الان في الكرى ، وراح يتحطم ببطء تحت ضغط الطاعون والنقيض المزدوج.

المسألة اذن : تتطلب الكفاح والجهد .. لان آفة الطاعون متأصلة في اعماقنا .. ولو كانت المسألة مسألة زلزال – اذن لحدثت هزة واحدة كبيرة ، وانتهى الامر ، ولراحوا بعد ذلك يحصون من ماتوا ، ومن ظلوا على قيد الحياة ، وبذلك تنتهي الكارثة .. أما ذلك المرض اللعين..فحتى أولئك الذين لم يصابوا به لا ينجون من نتائجه ومخاوفه .!

« اذا فلننتظر حتى يصير عدد الاطباء اكبر من عدد المرضى »ولكن هذا الانتظار يجعلنا نرى البؤس والالام التي يجرها الطاعون ، ونستسلم له .. فلا بد وان نكون اما مجانين .. او عميانا .. أو جبناء ...

وهنا يوضح لنا البير كامو مشكلة الحرية بمعناها الفلسفي العميق .. فنحن بازاء انتقاد ذاتي يشهد بان الافق الذهني لهذا الاديب الفيلسوف قد تخطى مرحلة الواقع أعني مرحلة الحالة الراهنة وامتد الى حالة اخرى صورها له الله القوي مما يدل على ان ذاته قد انفصلت عن واقعها مندفعة نحو « ما ينبغي ان يكون » وهذا هو السبب في ان لحظة التأمل العقلي والحكم على الذات لا بد وان تكون بمثابة انفصال جزئي عن الماضي ، وتحرر جزئي من الواقع ، ويصبح عندئذ التفكير والتأمل العقلي هو نقطة البداية في الحرية...

وجاء « تارو » الذي بدأ العمل فجمع اول فرقة ثم اتبعها بفرق أخرى كثيرة ، وكون منظمات لوقاية الافراد من الطاعون بعد ان اقنع الناس بأنه ما دام المرض موجودا بيننا فانه ينبغي عمل كل ما يمكن عمله لمكافحته ، واصبحت مسألة الطاعون مسألة تهم الناس جميعا .. ولكن أيكفي ان يعلم « تارو » الطبيب .. الناس كيف يتخلصون من الطاعون؟ وهل من المستساغ ان يشتغل الناس بسماع تعاليم « تارو » كما يشغل المدرس أذهان التلاميذ بأن « أثنين واثنين تساوي أربعة » .. فقد يبدو ان هذا العمل جدير بالثناء ، ولكن هناك في التاريخ لحظات يعاقب فيها من يجرؤ على القول بأن أثنين واثنين تساوي اربعة بالموت .. والمدرس يعرف ذلك جيدا ، والمسألة ليست في ان تعرف ما هي المكافأة او ما هو العقاب الذي يستتبعه هذا التفكير .. وانما تنحصر المسألة في ان تعرف ما اذا كان « اثنان واثنان تساوي اربعة ام لا ؟ فمواطنونا الذين جازفوا في هذا الوقت بحياتهم كان عليهم ان يقرروا ما اذا كانوا في وقت الطاعون أم لا ؟ وما اذا كان من الواجب عليهم ان يكافحوه أم لا .. وهنا يبين لنا كامو : ان الحقيقة قد تنطمس تحت نير الظلم ، ولكن الى حين ، فالناس يتحتم عليهم ان يلاحظوا ويفكروا لكي يتتبعوا الطاعون.. لانه لا يكشف عن نفسه الا بعلامات سلبية فاذا استسلم الافراد للطاعون فسوف يقبلون على الطرقات ليموتوا فيها اكواما حيث تتعفن جثثهم ، وسوف تشاهد المدينة المحتضرة في الميادين العامة يتعلقون بالاحياء مدفوعين الى ذلك بمزيج من حقد مشروع وأمل أبله ..

ينبغي علينا اذن ... ان نعمل كل ما يمكن عمله حتى نكف عن ان نكون مصابين بالطاعون ، وانه بهذا .. بهذا فقط يمكننا ان نأمل في السلام . والمرء يحتاج لكثير من الارادة ، حتى لا يصاب بالسهو .. وانه لامر شاق ان يصاب المرء بالطاعون ، ولكن أشق منه ان يستسلم المرء للاصابة به .. واذا ما استسلمت لهذه اللحظة فلم أعد أساوي شيئا بالنسبة لهذا العالم ..

وهنا يبين لنا البير كامو :

ان الانسان برغم خضوعه للظروف غير الملائمة التي تعصف بوجوده .. بالرغم من ذلك الخضوع .. فهو رب افعاله ، وهو السيد المتحكم في تصميماته .. فمن امتنع عن الاختيار فقد اختار الا يختار ، ومن ترك للمؤثرات الخارجية ان تختار له فقد اختار لنفسه الاستسلام ..

فليس امامنا ما نخسره اللهم الا ان نخسر كل شيء .. لذا دعنا نتجه قدما الى الامام .. هذا هو رهان جيلنا .. فاذا فشلنا فان من الافضل لنا ان نكون قد وقفنا في صف من اختاروا الحياة ، بدلا من الوقوف في صف من يدمرونها ...

القاهرة — **سيد صبحي**